الشيخ أبو العـــــــــيون

تقـــديم

لا زالت أذكر تلك العبارة المؤثرة التى قالها لى شيخنا محمود أبو العيون رحمه الله فى عـدة مناسبات ، وكأنه يبعثها خفقة لوقتها من فؤاده : « إنك ستكتب تاريخى بعد موتى فى يوم من الأيام » ! . . لا زالت هذه العبارة كأنها ترن فى أذنى مجلجلة ؛ ولقد طالت صحبتى للفقيد الكريم حتى زادت على خمسة عشر عاما ، خالطته فيها وحادثته ، ووافقته وخالفته ، وراسلته واستكتبته . . .

فلما قبضه الله إليه عقيب جفوة عارضة بينى وبينه ، نسيت الجفوة وذكرت الكلمة ، وبدا لى كأن سماعى لها من فمه عدة مرات قد صار عهدا يجب الوفاء به ، ولذا كتبت عن الفقيد للأهرام ، وكتبت عنه فى منبر الشرق ، وكتبت عنه فى المقطم وفى مجلة الاعتصام ، ودعوت إلى تأبينه ، وأقيم لذلك احتفال مشهود فى دار الشبان المسلمين ؛ وهأنذا أسجل هنا كلمتى المبسوطة عن الفقيد ، لعل فيها قضاء للعهد ووفاء بالميثاق . « أحمد الشرباصى »

رحم الله شيخنا أبا العيون ! . . . لقد كان رجـلا والرجال فى الدنيا قليل ؛ وكان من الصفوة المجاهدين ، والخيار دائماً سراع الخطا إلى رحاب الخلود ! . . .

سمعت باسمه وقرأت له وأنا فتى صغير أطلب العلم بالمعهد الابتدائى فى دمياط ، ثم رأيته بعـد أن انتقلت إلى معهد الزقازيق الثانوى ، وقد أقبل شيخاً له ، فرأى المعهدُ فى أيامه وعلى يديه العصر الذهبى الجميل فى تاريخه ، بما أجراه الشيخ فيه من تهذيب وإصلاح . . .

جاء فأصلح المبنى والمعنى ، ونهض بالطلاب ، وحرض العلماء على العمل الدائب الموصول ، وأخذ أبناءه بوجوه من الإصلاح الاجتماعى والثقافى والأدبى والرياضى ، كانت سبباً فى نقلهم من حال إلى أحوال ، لأنها كانت جديدة عليهم ، وما كانوا يومها يؤملون أن يبلغوها ؛ ولـكن أبا العيون المجدد السباق كان يظفر فى إصلاحه ، وكان يسبق أهل بيئته وزمانه ، وكان يمد عين خياله لتضرب فى أحشاء المستقبل ، فيدرك أن هذا الجديد الغريب سيصبح بعد قليل أمراً مألوفا ، وواجباً مطلوبا ؛ وكذلك كان ! .

لقد سبق الشيخ أبو العيون زمانه سبقا ملحوظا حين أنشأ فى معهد الزقازيق التابع للأزهر الشريف أول فرقة للكشافة عرفها الأزهر فى تاريخـه ، وكان ذلك فى سنة ١٩٣٥ م ، وما كاد هـذا الخبر يصل إلى كبار اللحى والعمائم ، حتى ثارت ثائرتهم ، وضج ضجيجهم ، وأخذت التهم والافتراءات تنهال منهم جزافا على رأس الشيخ ، وكان أخفها أنه يسوق طلابه إلى التحلل والعبث ، ويلهيهم عن العلم ومكارم الأخلاق . .

واحتمل الشيخ صابرا ما سيق إليه ، أوما صُبَّ عليه ، ودارت الأيام دورتها ، وما هى إلا سنوات قلائل حتى رأينا الأزهر الذى ثار بالأمس على أبى العيون ، لأنه أنشأ فرقة كشفية فى معهد أزهرى ، ولأنه أنشأ فيه فرقا للكرة وحمل الأثقال والرحلات وغيرها ؛ رأينا هذا الأزهر يصل إلى ما سبق إليه أبو العيون ، فيصبح فى ميزانيته باب خاص واعتماد ضخم للألعاب البدنية ، والفرق الرياضية ، و . . . وفرقة التمثيل الأزهرية ! . . .

وهكذا يكون المصلحون دائماً ؛ لو قنعوا بالموجود بين أيديهم وأيدى أمتهم ، لما تم إصلاح ، ولما جاء تطور وتجديد ؛ بل عليهم أن يقفزوا القفزة الواسـعة الملائمة لنبوغهم وعبقريتهم ، ثم يحاولوا بعد ذلك أن يشدوا أمتهم إلى ذروتهم ، فإن تعجل النصر فبها ونعمت ، وإلا فقد رسموا الطريق ، وأرسوا الأساس ! . . .

ومما أذكره هنا أن إنشاء الشيخ لفرقة الـكشافة هذه دعانى إلى تأليف كتابى الأول «حركة الكشف» ، وجعلت إهداءه إلى الشيخ ففرح به كثيراً ، وتقبل ما وجهته إليه

فى الكتاب من نقد تقبلا جميلا ، ورفعت نسخة من هذا الكتاب إلى جلالة الملك فاروق فى سنة ١٩٣٦ ، فتفضل جلالته وأذن بإرسال خطاب شكر كان خير تحية يومئذ لهذا الكتاب ! . . .

* * *

ولقد أحسن الشيخ أبو العيون الجمعَ بين قديم أزهره وحديث الناس . . . فقد لاحظ الناقدون فى مطلع القرن العشرين أن فى مصر طائفتين تباينتا فى الثقافة والتفكير ؛ الطائفة الأولى هى الطائفة الأزهرية ، التى قنعت بزادها الشرقى القديم ، تفتات منه وتعكف عليه وتفنى فيه ؛ وتنأى بنفسها بعيداً عما جد فى العالم من آداب وعلوم وفنون ، بل وتنظر إلى بعض هذا الجديد على أنه عنصر من عناصر الإلحاد والكفران ، فهى لذلك لا تكتفى بهجرانه ، بل وتسرف فى محاربته وعدوانه ؛ مع أن هذا الجديد كان ينطوى على كثير من الخير ، وعلى كثير من النفع ، وإن يكن فى الوقت نفسه قد ضم قشوراً وفضلات ! . . .

والطائفة الثانية هى الطائفة التى تثقفت فى المدارس ، أو فى الجامعات الحديثة ، أو فى خارج الديار ؛ وكانت هذه الطائفة بعيدة أو مقطوعة من الثقافة الإسلامية والعربية ، فهى لا تعرف منها شيئاً ذا بال ، وهى لا تغار عليها ، وهى لا تفكر أن تلقح ثقافتها الجديدة بهذه الصبغة القومية التى تصلها بالإسلام والعروبة ؛ مع أن هذه الثقافة الحديثة فى أشد الحاجة إلى هذه الثقافة الشرقية القديمة ، حتى يخرج من تلاقيهما مزيج صالح نافع ، يجمع بين القديم والجديد ، فيرتكز بقديمه على أساس وطيد ، ويندفع بجديده إلى غايات يتطلبها ركب الحياة الدائم المسير . . .

وكانت الطائفتان تتحاربان كثيراً ، وتتقاذفان التهم والمسبات ، فأهل الثقافة الشرقية القديمة يعتبرون المحدثين فى ثقافتهم ملحدين وجهالا ، وأصحاب قشور لا تجدى ولا تنفع ؛ وأهل الثقافة الحديثة يعتبرون هؤلاء القدماء كالآثار البالية الجامدة ، التى لا تصلح لنهضة ، ولا تتهيأ لبعث فى هذه الحياة . . .

وكان المشفقون على أمتهم يتمنون أن توجد فيها طائفة وسط ، ليس فيها جمود القدماء ، وليس فيها جموح المحدثين ، بل فيها رزانة هؤلاء وثقافة أولئك ؛ وشاء ربك أن يطلع فى سماء مصر نجوم قليلة كوّنت هذه الطائفة ، إذ اغترفوا ما قدروا عليه من ثقافة عقيدتهم وعروبتهم ، ثم نهلوا أيضاً من المنابع الصافية التى جاءتهم مع هذه الحضارة الجديدة والمدنية الطارئة ، فأوجدوا بذلك الحلقة المفقودة التى تمناها المشفقون ، لتربط بين القديم والجديد ، برباط فيه اعتزاز بالماضى الكريم ، وفيه مجاراة للحاضر الطريف . . .

ولقد كان الشيخ أبو العيون — رحمه الله — أحد أولئك النجوم . . . كان بين قومه أزهريا محافظاً ، بزيه وسَمْتِه ولغته وثقافته وأخلاقه ؛ وكان مع المحدثين رجلا عصريا ، يعرف الأدب والثقافة ، ويتكلم فى مسائل الاجتماع ، ويشاطر فى أمور الوطنية ، ويحضر ندوات السياسيين والكاتبين والصحفيين فيدلى بينهم بدلوه ، ولا يتقاصر عن مستواهم بفهمه وفكره ؛ ومن هنا استطاع أن يفيد كثيراً ، وأن يستفيد كثيراً ، أفاد مجتمعه بأن قدم إليه زاد رجل الدين فى حلة قشيبة جذابة ، واستفاد أن شيد لنفسه مركزا ملحوظا بين كبار قومه وأساطين أمته . . .

* * *

وكان الشيخ رحمه الله خبيراً بإصلاح المجتمع ، يعلم أن البيئة المتحللة الفاسدة ، التى طال عليها الأمد ، حتى قست قلوب أبنائها ، واتسعت مسافة الخلف بين سلوكهم وبين دينهم ، لا يستقيم أمرها دفعة واحدة ، ولا تنبت أرضها فى يوم وليلة ، بل هى فى حاجة إلى التطور والتدرج ، وإلى طول المعالجة والتمريض ؛ وتلك سنة الدعوات الإصلاحية ، بل تلك طريقة الأديان السماوية ؛ وأمامنا الإسلام ، فقد جاء والعرب فى فوضى أخلاقية فاشية ، فلم ينزعهم منها إلى نور الإيمان واستقامة الأخلاق دفعة واحدة ، بل ساسهم خطوة فخطوة ، ونقلهم إلى تعاليمه مرحلة فمرحلة ؛ وهديه فى تحريم الخمر على مراحل ثلاث أسطع برهان . . .

وبهذا التدرج أخذ الشيخ أبو العيون فى معالجة ما خصص نفسه لعلاجه من أمراض المجتمع الذى يعيش فيه .

لعل الناس يذكرون مثلا أن الشيخ ثار حينما لجأ النساء العاريات على الشواطىء إلى ارتداء ثوب للاستحمام فى البحر مكوّنٍ من قطعتين ، الأولى على الثديين ، والثانية بين الفخذين ؛ وبقية الجسم الأنثوى الواجب ستره مكشوف للأبصار . . .

وحصر الشيخ ثورته فى المطالبة بأن يكون ثياب البحر للنساء من قطعة واحدة ، وكفى . . . وذهبتُ إلى الشيخ

غاضبا فيمن ذهب ، وكنت يومها لا أزال طالباً ، وقلت له : أهذا كل ما تطالب به وأنت الشيخ الغيور الوقور . . . أن يكون ثوب البحر للنساء من قطعة واحدة ؟.. معنى هذا أنك راض عما يكشفه الثوب الواحد من أذرع وسيقان وغير ذلك ، ومعنى هذا أنك راض عن سفور المرأة بهذا الشكل المزرى على الشواطىء ، ومعنى هذا أنك راض عن اختلاط النساء بالرجال فى البحر ما دمن بثوب مكون من قطعة واحدة ؛ ومعنى هذا . . .

وتبسم الشيخ وأجاب : إنك لا تستطيع أن تجعل من البغىّ قديسة فى ليلة واحدة !... بل لا بد من استدراجها والصبر عليها ، حتى يسهل نقلها من فجورها وفسقها إلى طريق الهدى والرشاد . . . وليس كل ما أريده فى الواقع هو أن يكون ثوب البحر للمرأة من قطعة واحدة ، ولكن هذه خطوة يسهل تنفيذها ، وبعدها خطوات ، ولن نستطيع أن نصل إلى الحلال الكامل حتى نخوض إليه الحرام خوضا ، ولا بد للمصلح من الإغضاء مؤقتاً عن هفوات وهفوات ، حتى يأتى الوقت المناسب للتطهير والاستئصال . . .

وبمثل هذا المنطق إذن قد نستطيع أن نفسر سرّ استقبال الشيخ أحيانا لبعض السيدات أو الآنسات السافرات ، ليتحدث معهن فى أمر من أمور الدين أو الأخلاق ، فقد كان يرى أن هؤلاء النسوة فى مفترق الطرق ، فإن تركناهن وشأنهن ، ضللن الطريق وأسرفن فى الابتعاد عن حمى الحجاب والحشمة والأخلاق ، وأما إذا تلاقين معهن ، مغضين النظر مؤقتا عما هن عليه من تفريط فى أمر الحجاب والحشمة ، فقد نستطيع بعد قليل أن نجتذبهن إلى سواء السبيل ؛ لأن المرأة الحديثة تخاف رجل الدين ، وتستثقل ظله ، وتراه حجر عثرة فى طريق نهضتها وحريتها ، وما ذلك إلا لأنه يغلظ للمتحللات القول ؛ ولو أن رجل الدين أحسن التأتى إلى موطن الإقناع فى نفس المرأة ، وأطلعها على جوانب السماحة والسهولة فى الدين ، لاقتطعها من بيئتها المتحللة ، واستطاع فيما بعد أن يغرس فيها فضائل الحجاب والعفة شيئاً فشيئا ، وبطواعية منها واختيار .

* * *

وكان الشيخ رحمه الله رجلا بساما متفتح القلب بشوش الوجه ، تعلوه سماحة الملامح طيلة حياته ، وكان لا يعرف الغضب ، بل يحاول فض المشكلات بروح الود والتفاهم ، وإذا غضب يوماً لكرامته — وهى أعز شىء عنده — فهو سريع العودة إلى الرضا ، ما دامت الأمور قد عادت إلى مجاريها . . .

ولقد رأيته مرارا وهو يحاسب مرءوسيه على أخطاء وقعت منهم ، ثم يظهر لهم غضبه من هذا التفريط ، ثم يعود بعد ذلك فيرضى ذلك المرءوس ويتظاهر بالاعتذار إليه ، كأن الشيخ هو الذى أخطأ ؛ وله فى ذلك مواقف كثيرة سائرة .

ويتبع هذا الرضا فى النفس أن الشيخ كان متواضعا واسع التواضع ، لم يفخر يوما بجاه ولا بمنصب ولا بشهرة ؛ وكثيرا ما استغل السفهاء أو الوقحاء هذا التواضع عند الشيخ الجليل فتطاولوا عليه ، أو فرطوا فى توقيره واحترامه ؛ لأننا درجنا فى بيئتنا مع شديد الأسف على أن نحترم المتحفظ المتعالى المترفع ، أو نخشاه ونخافه بمعنى أصح .

وأما الرجل العظيم — إذا تواضع لنا واختلط بنا وتناسى عظمته معنا — فإننا نتطاول عليه ونتساهى إليه ، وننسى أو نتناسى أننا أقزام بجوار عملاق ، فنحاول أن «نتعملق» أو أن نجعله قزما مثلنا ؛ وهيهات ! ...

وقد كان الواجب يقتضى أن نحترم العظيم المتواضع مرتين ، نحترمه مرة لعظمته الذاتية التى وصل إليها بعلمه أو دينه أو جهاده ، ونحترمه مرة أخرى لأنه تناسى هذه العظمة ، وتنزل من ذروته إلى مستوانا . ولكن لمن تقول القول وأكثرهم لا يستحون ؟ ...

على أن الشيخ كان يفخر بشىء واحد... وحق له أن يفخر به . . . كان يفخر بمواقفه فى الثورة ، وبمحاربته الطويلة للبغاء ، وبمجاهدته للسفور الفاضح ؛ ولقد سمعته مرارا وهو يردد علينا ما كان منه وما وقع له فى تلك الثورة ؛ وليت الأسباب تتهيأ لتقييد هذه الذكريات وجمعها ؛ إذن لصارت غذاء للذين يترسمون خطا الأمجاد ...

* * *

وامتاز الشيخ رحمه الله بناحية أخرى . . . إنه رجل عرف رسالته فى الحياة ، ورسم خطته ، وحدد هدفه ، ثم بدأ المسير وواصله وهو على بصيرة من أمره ، يعرف ماذا يصنع ، وماذا يجاهد ، وماذا يريد ! ...

عرف أن رسالته فى الحياة هى أن يكون داعية إصلاح وأخلاق ، ورسم خطته بأن حصرها فى مجاهدة مشكلتين

من أخطر المشكلات فى المجتمع وهى البغاء والسفور ، وحدد هدفه وهو الوصول إلى إلغاء البغاء وإخضاع هذا السفور لما أمر الله ، وصار على الطريق مجاهدا ، يكتب ويخطب ويراسل ويحتج ويثور ، وشاء الله له ألا يحرمه من قطف الثمر ، فشهد إلغاء البغاء قبل أن يتوفاه الله ، وفى محاربة السفور وصل إلى أن نبتت فى الحمى نابتة ترى فى الأخلاق الكريمة عزها ، وفى العفة تاجها ، وستكون هذه النابتة بمشيئة الله طليعة نصر يتكشف قريبا عن استقرار لقواعد الأخلاق والفضيلة فى هذا البلد ...

وليت كل رجل من رجال الدين فى الأمة يفعل مثلما يفعل أبو العيون .. إنهم لو انتهجوا نهجه لوصلوا فى دعوتهم إلى الكثير من الخير ؛ لأن عيب رجال الدين أنهم لا « يتخصصون » فى أرجاء دعوتهم ، بل يتحدثون إلى الناس حديثاً عاما عائما ، لا يتناول المشكلات بالتفصيل والتحليل ...

ولو أن كل واحد منهم تناول مشكلة من مشكلات الحياة كالربا أو الخمر أو الميسر أو الزنا أو الكذب أو التدخين أو الترف ، أو غير ذلك من العيوب أو المفاسد ؛ وعكف عليها يدرسها ويعرف أسبابها ويحدد وسائل علاجها ، ويتفرغ للحديث عنها ، وإرشاد الناس إلى الصواب فى أمرها ، لوصلنا بذلك إلى خير كثير .

* * *

أما بعد . فلسنا نصطنع البكاء والعويل حين نتحدث عن أبى العيون وقد أصبح خبراً فى التاريخ ، فما من شيمتنا ذلك فى التأبين والرثاء ، بل ذلك شيمة الضعفاء أو السفهاء من الناس ، ولكننا نريد تجلية القدوة ورسم الأسوة المتشبهين ، ولقد عاش أبو العيون رحمه الله حتى شارف السبعين من سنواته ، وذلك عمر فى عرف الناس ليس بالقليل ، ولكنه رحمه الله قضى هذا العمر الطويل مجاهداً مناضلا ، يرتفع صوته فى كل محنة نازلة ، ويدافع عن الأخلاق والحرمات فى كل منزلة ، حتى شغل بذلك الناس وملأ الدنيا ؛ ورحل إلى ربه راضيا مرضيا ، فليس بكثير عليه أن نتوجه إلى الله سبحانه نسأله أن يسكنه فسيح جناته مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا ! ...

أحمد الشرباصى

المدرس بالأزهر الشريف

وجهة نظر

إن إدارة المعارف ما زالت مصممة ، على أن البلاد لم تصل حتى الآن إلى درجة من الثقافة والرقى ، بحيث يخولها أن تقيم عاقة للتمثيل والاحتفالات ، وأن ذلك من الترف الذى يجب ألا تبذر به المعارف ماليتها الآن .

ولا شك أن المعارف تقع فى خطأ جسيم إذا ما فكرت هذا التفكير . فالبلاد اليوم بأمس الحاجة إلى قاعة محترمة فى مركز متوسط من البلاد ، فعدم وجود القاعة هو الذى يحرم فرق التمثيل فى البلاد — سواء كانت فرقاً من من المدارس المختلفة ، أو فرقا الهواة محترفين ، أو حتى من الفرق الخارجية — من الإكثار من عرض رواياتها . فليس لديها من المسارح إلا المسرح المفتوح الصيفى الفلق الذى لا يمكن أن يفى بمطالب التمثيل من حيث النور والصوت إلخ ... وكذلك فى المناسبات والاجتماعيات القومية والدينية لا يوجد مجمع معين يلم الشعب ، فكلتقدم المعارف على هذه الخطوة ، ففيها تشجيع كبير للحياة الثقافية والاجتماعية بالبلاد ...

« ... »